وقفاتٌ مع آياتِ

اليومِ الآخِرِ

أُلقيت في ذي الحجة ١٤٣٩

أ. أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الثّالث

"سلسلة وقفات مع آيات في حجّ ١٤٣٩هـ"

الأخبارعن اليوم الآخر: إحياء الخلق يوم القيامة

- الوقفة السّابعة ٤
- الوقفة الثّامنة ١٨

◆الوقفة السّابعة◆

مع الآية (٧) من سورة القمر

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل الإيمان أهل القرآن، المنتفعين بمواسم الطّاعات، اللّهمّ آمين.

ما هي القضايا العظمى الّتي لابدّ أن تشغل العباد؟

كنّا في "وقفات مع آيات" ولازلنا، وكلّ هذا مقصدنا فيه: زيادة بيان ما أخبر به الرّحمن -سبحانه وتعالى- عن لقائه، فإنّ القرآن من بداية نزوله له غاية واضحة ينصّ عليها، وهي: توحيد الله -عزّ وجلّ- وتقرير النّبوّة، وتقرير المَعاد، فهذه هي القضايا العظمى الّتي لابدّ أن تشغل العباد:

توحيد الله عزّ وجلّ: يشغل العباد توحيد الله والإيمان بكماله وعظمته وجلاله.

تقرير النّبوّة: والإيمان بأنّه أرسل نبيًّا فَيُتَابَعُ -صلّى الله عليه وسلّم- في كلّ شأنه.

تقرير المَعاد: والإيمان بلقاء الله -عزّ وجلّ- وهذا أعظم دافع ليستقيم الإنسان ويتّقي الله عزّ وجلّ.

ولذلك في هذا الموسم -موسم الحجّ- من أعظم الأمور الّتي يجب تذكّرها هو لقاء ربّ العالمين خاصّة وأنّنا نسمع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1] وهذه الآية هي مطلع سورة الحجّ.

فهذا هو الموضوع المهمّ: أنّ تقوى الله معتمدة على التّفكير في لقائه سبحانه وتعالى.

(١) الحجّ: ١.

ملخّص ما سبق من اللّقاءات

وقد مرّ معنا: أنّه -سبحانه وتعالى- قد أخبر في القرآن من عظيم رحمته بنا وإحسانه لنا الأحداث الّتي ستكون يوم القيامة:

- فسمعنا عن السّماء وكيف تكون وردة كالدّهان، حمراء شديدة الحُمرة من حرارة النّار، تكون سائلة كالدّهن.

- وعرفنا أيضًا عن هذه السّماء العظيمة أنّها تنشقّ وأنّها تصبح أبوابًا وأنّ الملائكة تنزل منها.

- وعرفنا أيضًا عن الجبال أنّها تدكّ وكيف الإنسان في ذاك الموقف ينظر إليها يحسبها جامدة! كيف أنّها تُنزع من الأرض وتُجمع وتُفتّت فيحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السّحاب!

خروج النّاس من قبورهم بعد النّفخ في الصّور والتقاء الأرواح بالأجساد

واليوم -إن شاء الله- نسمع عن كيف يحيي الله -عزّ وجلّ- الخلق في ذاك اليوم العظيم؟ فقد قرّب الله -عزّ وجلّ- لنا هذا المعنى وضرب لنا في ذلك الأمثلة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾[1] وهذه كلّها نعم في الدّنيا، ثمّ يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ معنى هذا: أنّه أنظروا كيف تكون الأرض ميّتة ثمّ بعد ذلك يخرج الله -عزّ وجلّ- منها النّبات؛ في

(١) ق: ٩_١١.

الدّنيا هذا النّبات لنفعك، وهذا النّبات نفسه تصوّر أنّ خروج النّاس يوم القيامة سيكون مثل خروج هذا النّبات ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ يعني: مَثَّلَ الله إخراج النّاس من قبورهم أحياءً يوم القيامة كمثل إخراج النّبات من الأرض بعد عدم.

فإحياء الله الأرض بعد موتها بإخراج النّبات المفترض أن يكون عند أهل الإيمان برهانًا قاطعًا ساطعًا على قدرة الله على إحياء النّاس بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا.

النّاس يكونون يوم القيامة في حالة تشبه حال النّبات:

فسيكون النّاس يوم القيامة في حالة تشبه حال النّبات، فتخرج أبدانهم كالنّبات من الأرض، وقد ورد في الحديث «يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»[1] أنّ السماء تمطر مطرًا فتخرج هذه الأجساد من الأرض، ثمّ يُنفخ في الصّور فتخرج الأرواح وتلتقي بالأبدان، معنى هذا: أنّ البدن سيكون مثل الشّجرة لكنّه بدن خالٍ من الرّوح فإذَا نُفخ في الصّور التقت الأرواح بالأبدان فأتت الحياة.

ولذَا في سورة الأعراف الله -عزّ وجلّ- قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]

الصّورة الحسّيّة واضحة، يعني المقصود بها: ما تجده في الحياة أنّ الله -عزّ وجلّ- يسوق السّحاب إلى بلد ميّت، أرض مُجدبة لا نبات فيها فينزل المطر فيخرج النّبات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ فيخرج الموتى من قبورهم بعدما يكونون رفاتًا ورميمًا كما تخرج النّبتة:

- فالنّبتة تخرج من الحبّة، الحبّة تكون في الأرض فيُنزل الله -عزّ وجلّ- عليها المطر فتخرج نباتًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٦٦).

(٢) الأعراف: ٥٧.

- والإنسان يكون رفاتًا كلّه في سنين متعاقبة يصبح لا شيء إلّا أنّه يبقى منه عجب الذّنب، هذا الجزء البسيط من جسم الإنسان يبقى فيخرجه الله -عزّ وجلّ- بعدما «يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا» كما في الرّواية فيخرج الخلق كالنّبات.

ولذلك كثيرًا ما نجد بعد الكلام عن إنزال المطر: نجد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾

فمثلًا: في سورة فاطر الآية (٩): ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾

وفي الزّخرف الآية (١١): ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

فَ ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ وفي ق الآية (١١): ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾

فالمطلوب: أن نجعل هذه الآية، الّتي هي: "آية إحياء الأرض بعد موتها" آية مذكّرة لحال النّاس يوم يُخْرَجون ويكون النّاس كالشّجر فتأتي الأرواح فتلتقي بهذه الأبدان.

رؤية المؤمنين النّبات وخروجه تذكّرهم بعظمة ربّ العالمين وقدرته:

في كتاب الله -عزّ وجلّ- ٣٢ موضعًا جعل الله -عزّ وجلّ- فيها الدّلالة على إحياء الموتى هو إحياؤه -سبحانه وتعالى- للأرض الميّتة بماء المطر،

ومن هنا ظهر أنّ هناك ٣ براهين على البعث تكرّر ورودها في القرآن مجتمعة أحيانًا ومنفردة أحيانًا:

١. الاستدلال ببدء الخلق: يستدلّ -سبحانه وتعالى- من بدء الخلق على إعادته.

٢. والاستدلال بخلق السّماوات والأرض على إحياء الموتى.

٣. والاستدلال بإحياء الأرض على إحياء الموتى.

فهذه ثلاثة أنواع: بدء الخلق، خلق السّماوات والأرض، وإحياء الأرض.

فهذا كلّه مُذكّر بالمَعاد، وفيه بيان لعظمة الله، وبيان لكمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته.

فحين نفكّر في مثل هذا نرى: كيف أن النّاس في قبورهم تختلط أجسادهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميّز معه ولا يحصل معه التّمييز بين شخص وشخص آخر، يعني: لا تتميّز أبدانهم من بعض ولا يتميّز بعضهم من بعض، فيُقال للخلق بأنّ الله بكلّ شيء عليم وعلى كلّ شيء قدير:

- يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[١]
- ويقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾[٢]

---

(١) الحجر: ٨٦.

(٢) ق: ٤.

- ويقول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[1]

- ويقول الله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]

- ويقول عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[3]

فهذا كلّه دليل عظيم على أنّ هذه الأرض وما فيها من أدلّة تزيد إيمان المؤمنين، فكلّما رأوا هذا النّبات وخروجه تذكّروا عظمة ربّ العالمين وقدرته سبحانه وتعالى.

الحشر والبعث والنّشور

فإذَا خرج النّاس من قبورهم بعد النّفخ في الصّور والتقاء الأرواح بالأجساد يأتي الكلام عن الحشر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فإذًا هذه نفخة البعث والنّشور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[4] يعني: فيخرج الموتى من قبورهم أحياء ويسرعون في الخروج والمشي إلى المحشر ليقفوا بين يدي ربّهم عزّ وجلّ.

وفي هذا اليوم: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[5] يعني: في يوم البعث تنشقّ الأرض عن الموتى فيخرجون منها كما مرّ معنا بالصّورة الّتي تبيّنت لنا سابقًا ثمّ إذاَ نُفخ في الصُّور والتقت

---

(١) القيامة: ٤.

(٢) الحج: ٦.

(٣) يس: ٨١.

(٤) يس: ٥١.

(٥) ق: ٤٤.

الأرواح بالأجساد أوّل ما تحصل الحياة يكونون مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الدّاعي، فهو يدعو النّاس إلى الحساب، وذلك الحشر للعباد يسير هيّن على الله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ فيأتون في هذا الموقف جماعات وأمم ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[1] يعني: فتأتون من قبوركم إلى الموقف جماعات مختلفة.

(١) النبأ: ١٨.

الوقفة السّابعة مع الآية (٧) من سورة القمر

وأخبر سبحانه وتعالى: أنّ النّاس يخرجون من قبورهم أمثال جراد منتشر ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ وهذه الآية (٧) في سورة القمر تُصوّر حال النّاس حين يخرجون كحال الجراد حينما يتوالد وينتشر، وهي صورة لها تفاصيلها في الذّهن، فتصوّري:

- صورة النّاس الموتى.
- صورة القبور الّتي تشقّق.
- يخرجون، ينبتون.
- يُنفخ في الصّور.
- فيخرجون مسرعين في صورة الجراد المتكاثر، المنتشر في الآفاق والأقطار، فيحصل كثرة انتشار وتموّج وتدافع.

ودعونا نتصوّر السّياق لآية القمر خاصّة:

الله -عزّ وجلّ- يقول: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾[١]

فالخطاب هنا للنّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أن أعرض يا محمّد عن هؤلاء المشركين، واعلم أنّ هذا حقّ وإذا بقوا معرضين فإنّهم سيعلمون

(١) القمر: ٦-٨.

أنّه حقّ حين يدعو الدّاعي، فحين يدعو الدّاعي يناديهم على الحشر والحساب فهذا ﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ تُنكره النّفوس وتخاف منه، فيخرجون من الأجداث خشّعًا أبصارهم ذليلة ويكون هذا الأمر ظاهرًا عليهم! فيخرجون من قبورهم بهذه الصّورة: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ يعني: في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للدّاعي مثل الجراد المنتشر في الآفاق.

وفي خروجهم هذا أنّهم يخرجون ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ يكونون ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ يعني: مسرعين ومادّين أعناقهم إلى الدّاعي، فهو الإسراع والإقبال ويكون صاحبه خائفًا، وتكون عينه معلّقة بداعيه فلا يُخالفونه ولا يتأخّرون عنه.

والمُهطع: هو المسرع في مشيه نحو الشّيء، ويكون مادًّا بصره نحو مقصده إمّا لخوف وإمّا لطمع.

والدّاعي هنا هو: إسرافيل حين ينفخ النّفخة الثّانية، وهي النّفخة الّتي تدعوهم للحساب ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ فهذا معناه: أنّ أهل هذا الموقف يصفون هذا الموقف بأنّه ﴿عَسِرٌ﴾ بأنّه صعب شديد، والحمد لله أنّ الكافرون هم الّذين يقولون هذا الكلام إشارة بإذن الله إلى أنّ المؤمنين يكونون بحالة يسيرة.

كيف يكون حال النّاس عند خروجهم من قبورهم؟

يكونون كالجراد المنتشر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

تكون أصواتهم خاشعة: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1].

تكون أبصارهم خاشعة: كما أنّ أبصارهم خاشعة ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾.

خشوع الكفّار يكون فيه ذلّ ومهانة وخزي ويأس:

الكفّار والمؤمنون يكونون خاشعين، خشوع الكفّار يكون فيه ذلّ ومهانة وخزي ويأس ولذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾[2].

ويقول عزّ وجلّ: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[3].

خشوع المؤمنين مُقترن بالرّجاء والأمل: لكنّ خشوع المؤمنين يكون مُقترنًا بالرّجاء والأمل.

ففهمنا من هذا: أنّ ذلك الموقف العظيم الّذي يكون ﴿عَسِيرٌ﴾ على الكافرين ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[4] ويكون على المؤمنين يومئذ بأمر الله يسيرًا.

وفي ذاك اليوم يكون النّاس خاشعين، وعلمنا أنّهم يشبهون الجراد المنتشر ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾.

---

(١) طه: ١٠٨.

(٢) غافر: ١٨.

(٣) الشّورى: ٤٥.

(٤) المدّثر: ٩_١٠.

يشبهون الفراش المبثوث: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾[١]

يكثر التّندّم والتّحسّر: وما أكثر التّندّم والتّحسّر:

- يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[٢]
- ويقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[٣]
- ويقولون: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[٤]

فنتصوّر هذا الموقف العظيم: النّاس كأمثال الجراد المنتشر في الآفاق والأقطار في الكثرة، والتّموّج، والانبثاث، والانتشار، ومندفعين! مندفعين! لفصل القضاء والحساب.

وهذا الشّيء أنت تستطيع أن تراه، لأنّ الجراد هذه الحشرة ذات الأجنحة الأربعة، معروفة وكثيرًا ما يُضرب بها المثل في الكثرة والتّموّج، والنّاس حين يريدون أن يصفوا جيشًا كثيرًا يقولون: (جاء كالجراد) يعني: جاء هذا الجيش كالجراد من كثرته، وتموّجه، واحتشاده، وانتشاره، وتفرّقه، وتدافعه، واختلاط بعضه ببعض، فكلّ هذه الصّفات تكون في ذاك اليوم: مكتظّين.

وفي ذاك اليوم يكون هناك استتار بعضهم ببعض من شدّة الخوف! ويكونون حيارى فزعين لا يدرون أين يذهبون! ولا ماذا يفعلون من الخوف والحيرة والدّهشة.

---

(١) القارعة: ٤.

(٢) يس: ٥٢.

(٣) الصافات: ٢٠.

(٤) النبأ: ٤٠.

إنّ الله -عزّ وجلّ- قرّب لنا هذه الصّورة لنرى هول ما سيكون عليه الخلق، وما سيكون عليه الحال، فتقريب الصّورة من نعمة الله لكي ترى كيف يكون بعث النّاس؟ وقيامهم من قبورهم؟ وسيرهم وانطلاقهم إلى موقف الحشر؟

فتخيّلوا وتفهّموا وأدركوا وآمنوا بأنّ هذا بالضّبط سيكون.

فالله المستعان وعليه التّكلان ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ومن أقرب الأمثلة لهذا التّجمّع حتّى نفكّر فيه: ما نشاهده من تجمّع النّاس في صعيد عرفة يوم الوقوف بعرفة، مشهد عظيم يذكّرنا بهذه الحالة من الاحتشاد، فسيكون أعظم منه بكثير في ذاك اليوم العظيم، يوم لا يستطيع أحد أن يتصوّر له حدًّا ويُحصي له عدًّا إلّا من خلقه وأماته ثمّ أعاده فسبحان الخلاّق القدير العلاّم الخبير.

نلتقي إن شاء الله في الجلسة القادمة.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

◆ الوقفة الثّامنة ◆

مع الآية (٤) من سورة القارعة

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لازلنا في "وقفات مع آيات" وفي هذه الوقفة نذكّر أنفسنا بوقفتنا الماضية وهي الكلام عن:

"صورة خروج النّاس يوم القيامة من قبورهم"

وقد مرّت معنا: آية سورة القمر الآية (٧) ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ وتبيّن لنا أنّه: مُثّل لنا وقت خروج النّاس من قبورهم وقتما يحصل عودة الأرواح إلى الأبدان، وخروجهم من الأجداث، بمعنى: القبور، بمثل الجراد المنتشر.

وتبيّن لنا ما الوجه في التّشابه هنا: أنّ هناك اكتظاظ، واستتار بعضهم ببعض من شدّة الخوف، واحتشاد، وتدافع، وانتشار، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ ويتموّجون، فهذا وصفهم في سورة القمر.

وأمّا وصفهم في سورة القارعة وقد مررنا عليه في الجلسة السّابقة مرورا سريعا وهو: وصفهم أنّهم ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [1] فمعناها وُصف النّاس بوصفين:

الوصف الأوّل: أنّهم مثل الجراد: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

الوصف الثّاني: أنّهم فراش مبثوث: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

الوقفة الثّامنة مع الآية (٤) من سورة القارعة

ما هو الفرق بين الجراد والفراش؟

الفراش ضعيف بالنّسبة للجراد:

قد ذُكرت أقوال كثيرة في توصيف الفرق، لكن أهمّ شيء أن نعرف أنّ هناك فرق، لأنّ هناك من قال بأنّه ليس هناك فرق بين الجراد وبين الفراش.

لكن المعروف في لغة العرب أنّ الجراد والفراش اسمان لنوعين من الحشرات مختلفة، أو على الأقلّ مرحلتين من حياة الجراد مختلفة، وهذا القول قد قال به بعض العلماء أنّ الفراش هو الجراد الصّغير الضّعيف.

والّذي يهمّنا هذه الصّفة خاصّة: وهي: الضّعف، فعلى هذا سيتبيّن بأنّ الجراد أقوى من الفراش سواء كان حشرة أو هي نفسها في مرحلة من مراحلها، لكنّها تمثّل الضّعف وتمثّل عدم الاهتداء.

---

(١) القارعة: ٤.

لأنّه قد مرّ في حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بأنّ الفراش يقع في النّار: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا» -صلّى الله عليه وسلّم- «وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي»[1] اللّهمّ صلّ وسلّم على سيّدنا محمّد.

فالمقصد: أنّ الفراش يقع ويتهافت ولا يهتدي سبيلًا، ويهمّنا من ذلك بأنّه ضعيف بالنّسبة للجراد، هذا كان أوّل بحثنا.

ما هو الفرق بين آية القمر وآية القارعة؟

آية القمر تصوّر حال النّاس عند خروجهم من الأرض وسيرهم خلف الدّاعي مثل الجراد المنتشر:

في سورة القمر: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ وفي سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

فعرفنا الفرق بين الجراد والفراش، وأعطينا للفراش صفة الضّعف، وأعطينا للجراد أقوى قليلًا من الفراش.

فإذًا هناك فرق بين الكلمتين وفي كلّ الأحوال سيكون المنظر الّذي يُفترض بأن نتخيّله فيه طيش، وفزع، وجزع في كلّ الأحوال، لأنّه يُقال لك: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ﴾[2].

هذا خطاب لك: أتدري ما القارعة؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٥٨).

(٢) القارعة: ١_٢.

(٣) القارعة: ٣.

وقيل لك: إنّك ستكون كالفراش المبثوث: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)﴾[1] فتسمية السّورة بأنّها القارعة، هذه الكلمة المفزعة المروّعة، والخبر عن أنّ الخلق في ذاك اليوم يكون بهذه الحالة.

كلّ هذا يُراد منّا أن نتصوّر الصّورة وكيف يخرج النّاس من قبورهم؟ وكيف تكون أحوالهم؟

إلّا أنّه ثمّة فرق بين سورة القمر وبين سورة القارعة في وصف النّاس في تلك الحالة، وكأنّ السّؤال بطريقة أخرى:

ما هو الفرق بين أنّهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ وبين ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾؟

هناك للمفسّرين أقوال عدّة لكن عند ملاحظة نفس الآية وملاحظة السّورة يمكن أن نتصوّر القول الأصحّ من أقوالهم، فنحن لن نأتي بقول وإنّما نفهم أقوال المفسّرين.

نسأل الله ألّا يجعلنا من المتعالمين ولا من الّذين يقولون على الله بلا علم.

في سورة القمر يقول الله عزّ وجلّ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[2] الكلام عن الاقتراب والكلام عن بداية وقوع الأحداث، ففي بداية وقوع الأحداث الّتي هي في سورة القمر: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ يقول

---

(١) القارعة: ٤_٩.

(٢) القمر: ١.

الله عزّ وجلّ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ فالآن الكلام عن أنّهم: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فهذا وقت الخروج.

في مقابل وأنّه في سورة القارعة والّتي فيها أنّ الحدث قد وقع واشتدّ عن النّاس: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

- فلفظ الخروج ﴿يَخْرُجُونَ﴾ وارد صراحة مع الجراد.
- ولفظ يكون النّاس ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ وارد مع الفراش.

هذا يفيدنا في ماذا؟ أنّ هنا حالتين وصفتين في وقتين مختلفين:

الأوّل: حال الجراد.

الثّاني: حال الفراش.

بمعنى: أنّ النّاس عند خروجهم من الأرض تكون صورتهم تشبه صورة الجراد المنتشر في كثرتهم وتجمّعهم وتتابعهم وتدافعهم بعضهم ببعض، والجراد يُعتبر أقوى نسبيًّا من الفراش. فأوّل ما يخرجون يكونون يشبهون الجراد المنتشر في التّجمّع وفي التّصادم بعضهم ببعض.

وحاولوا أن تروا صورة لهذا الحدث: خروج الجراد، كيف يخرجون من الأرض؟ وكيف يطيرون ويصطدمون بعضهم ببعض؟

آية القارعة تصوّر حال النّاس حين تحصل أمامهم الأحداث العظيمة ويدركون بأنّ الموقف للحساب فتطيش أحلامهم وينبثّون كالفراش المتطاير:

على كلّ حال حين يُدركون الموقف للحساب والجزاء، حين يسيرون خلف الدّاعي كما في سورة القمر، يعني: هذا الحدث سيكون وراءه أنّهم: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ يعني: مسرعين لإجابة الدّاعي، فهذه السّرعة ستجعلهم يدركون الموقف: الحساب والجزاء، ولذلك ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[1].

المقصد: أنّ حالتهم حين يدركون بأنّ الموقف للحساب والجزاء تطيش أحلامهم فينبثّون ويقذفون بأنفسهم هائمين على مواطن يتوهّمون فيها نجاتهم، فتصبح صورتهم مثل الفراش المبثوث الطّائش المتفرّق في كلّ جهة، ويكونون قد بلغوا أعلى ما يكون من التّخبّط والحيرة.

وهذا مُناسب جدًّا لكي نتصوّر القارعة: فحين تأتي القارعة، وهي: الضّرب بشدّة بحيث يحصل صوت شديد، ويُقصد بالقارعة: يوم القيامة من النّفخة الأولى إلى فصل القضاء بين الخلائق، فهي تقرع القلوب والأسماع بأنواع من الأفزاع والأهوال.

وهذه القارعة سيكون أثرها على الإنسان، وأثرها على الأجرام العلويّة والسّفليّة، ستتحوّل من حال إلى حال الدّنيا، الانشقاق والانفطار، والشّمس والنّجوم تُكوّر وتنكدر وتتناثر، والأرض تَتزلزل وتُبدّل، والجبال تُدكّ وتُنسف.

في القارعة النّاس يصلون إلى هذا الحدّ من فُقدان السّيطرة على أنفسهم، وحتّى أنّ الجبال -كما مرّ معنا- تكون كالعهن المنفوش،

(١) القمر: ٨.

فالنّاس يصبحون فيها حيارى هائمين مضطربين، لا يدرون ماذا يفعلون من شدّة الفزع والهول، وتكون في هذه اللّحظات تحصل أمامهم التّغييرات، وتحصل أمامهم الأحداث العظيمة الهائلة، فكأنّهم الفراش المتطاير المفرّق هنا وهناك الواقع في النّار لتخبّطه.

ومع هذه الأحوال من النّاس تكون الجبال الرّاسيات الّتي كانت مثلًا في الثّبات والصّلابة والاستقرار تُصبح في ذاك اليوم مثل الصّوف المُلوّن المنفوش المتطاير في الهواء ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾[1] -وقد مرّ معنا- الكلام عن الجبال وما يحصل لها.

فيأتي بعد ذلك الكلام في السّورة: عن موازين أعمال النّاس، وكيف ينقسمون إلى فريق في الجنّة وفريق في السّعير؟

سنذكّر أنفسنا مرّة أخرى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2]

الله يعيننا

على ذلك اليوم، ويجعلنا من الآمنين، ويجعل تعلّمنا وفهمنا وتصوّرنا وخوفنا هنا سببًا عظيمًا من أسباب حفظنا في ذاك اليوم العظيم.

وسنكرّر على أنفسنا: بأنّ عقيدتنا في البعث بعد الموت عقيدة مهمّة تحتاج للتّكرار والبيان، والاستفادة من كلّ الصّور التّوضيحيّة والأمثلة الّتي ضُربت من أجل أن تُقرّب لنا ما سيكون عليه يوم القيامة.

---

(١) القارعة: ٥.

(٢) الحج: ٢.

وانظر النّاس كيف سيكونون عند ربّهم: كأمثال الجراد! وكأمثال الفراش! ما أهون أهل الكفر على الله.

وانظر كم عدد النّاس المبعوثين يوم البعث؟ كم عددهم؟ ما أكثرهم! كيف سيكون انتشارهم؟ كيف سيكون ازدحامهم؟ كيف سيكون ذعرهم؟ كيف سيكون تحيّرهم؟

-اللّهمّ سلّم، اللّهمّ سلّم-

ولذَا ممّا يُسلّي المؤمنين أنّ الملائكة الكرام تتلقّاهم يوم الفزع الأكبر، وتُؤمّنهم في ذلك الخوف العظيم.

وإذَا شُبّه النّاس بالفراشة الّتي وردت أيضًا في حديث النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، الحشرة الطّائشة الغير عاقلة المخدوعة الّتي تُلقي بنفسها في النّار! فإذَا شُبّه الإنسان بذلك معناها: يحتاج أن يُفكّر في جهله! واغتراره بالدّنيا! فإنّ اغتراره بالدّنيا هو سبب سقوطه في النّار.

فهذه الحشرة إذا سقطت في النّار احترقت وانتهت! لأنّها تتخلّص من عذاب النّار مباشرة!

لكن التّفكير في الإنسان الّذي إذَا ذاق عذاب النّار كأنّه لم يذق خيرًا قطّ! ولم يذق نعيمًا أبدًا!

ولذلك الله -عزّ وجلّ- دائمًا ينبّهنا إنّ وعد الله حقّ فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ

عَدُوٌّ﴾ لكم عدوّ ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1]

الله ينقذنا من نوم الغفلة،

الله يجعل الدّنيا عندنا لا تساوي جناح بعوضة،

الله يجعلنا ممّن آثر الحياة الآخرة على الحياة الدّنيا،

ارحمنا يا رحمن، ارحمنا يا رحمن، ارحمنا يا رحمن.

وبهذه المناسبة لابدّ أن نُذكّر أنفسنا: بأنّ الطّريق إلى تصوّر أحوال يوم القيامة يبتدئ بإضعاف التّعلّق بالدّنيا، فنعمل أعمالًا نقصد بها إضعاف التّعلّق بالدّنيا:

١. فمن ذلك ذِكر ما وُصفت به الدُنيا من حقارة.

٢. وذِكر ما كان عليه النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من زُهد فيها، فإنّه -صلّى الله عليه وسلّم- ما شبع من خبز شعيرٍ يومين قطّ حتّى قُبض -صلّى الله عليه وسلّم-.

فالواجب تصفية النّفس من التّعلّق بالدّنيا بذكر:

- ما وصف الله -عزّ وجلّ- به هذه الدّنيا.
- والحال الّتي كان عليها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-.
- وأيضا تأمّل الكلمات الّتي زهّدنا بها النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في الدّنيا: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[1]

(١) فاطر: ٥_٦.

ونحن في خططنا وحياتنا نمشي بعكس هذا التّيّار! بدلًا من أن نكون غُرباء وعابري سبيل نحن نعايش الدّنيا كأنّنا خالدين! وقليلًا ما يمرّ في خاطرنا أنّه اعمل عمل من ليس له فرصة إلّا هذه!

ولذَا فإنّ ابن عمر الّذي نقل هذا الحديث كان من وصيّته الّتي هي من فائدة هذا الحديث أنّه: «إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ» والمعنى: أنّه اجعل شغلك في طاعة الله في هذا الصّباح! وَ «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ»[٢] وإنّما اجعل هذا المساء هو آخر مساء لك!

فماذا تفعل؟ اجتهد في الطّاعات! اجتهد في العبادات!

فلا يمكن تصوّر ما سيكون يوم أن نلقى ربّنا دون أن ننسى أن نتصوّر ما سيكون حالنا عليه إذَا ما نقص علينا شيء من الدّنيا! فنحن طوال الوقت مشغلون بهذا: (لو نقص عليّ هذا ماذا سيكون حالي؟! لو نقص عليّ هذا ماذا سيكون حالي؟!)

الله يعيننا ويعين ذرّيّاتنا من بعدنا فإنّ المادّيّة والرّأس ماليّة أصبحت هي الميزان الّذي يزن حياتهم ورضاهم! حتّى رضاهم عن الله أصبح محبوسًا وراء عطائه! فإذَا مُنعوا ما أرادوا -نستغفر الله- فقدوا إيمانهم! عقّوا والديهم! أنكروا فضل الله عليهم!

فإلى الله المُشتَكَى، إلى الله المُشتَكَى

ومع ذلك -الحقيقة- لا نريد أن نركّز بأنّ الصّغار هم الّذين حالتهم مثل هذه الطّريقة! فالصّغار ماشون على نهج الكبار! واليوم هناك حتّى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٩).

(٢) نفس تخريج الحديث السّابق.

من الكلمات الّتي نستحي أن نقولها من ظواهر سواء الّتي يُسمّونها: بالمُراهقة المُتأخّرة! أو غيرها! فإنّه يكبر ويكون بينه وبين القبر أقلّ من خطوة ولا يمكن أن يكون الآتي أكثر ممّا سبق! ومع ذلك فإنّ النّفوس لازالت متعلّقة بالدّنيا ولازالت متعلّقة بالشّهوات! وكأنّه كان محبوسًا أوّلًا عن الشّهوات لأغراض دنيويّة أيضًا فعندما تفرّغ من الأغراض الدّنيويّة عاد إلى الدّنيا!

على كلّ حال لا نريد أن نخرج عن موضوعنا، إن شاء الله في الجلسة القادمة نُكمل الكلام عن هذه الصّور المهمّة الّتي يجب أن تكون في أذهاننا عن يوم القيامة.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.